التوجيه البلاغي لآيات الصفات الفعلية غير المُتَضَمَّنة في الأسماء الحسنى بين أهل السنة والمُعْتَزِلَة

إبراهيم ناجي عبد الجواد رسلان (*)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله الأطهار الطيبين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

المقصود بالصفات الفعلية في حق الله تعالى "هي تلك الصفات التي يمكن أن تنفك عن الذات الإلهية. بمعنى أنها متعلقة بالمشيئة والإرادة إن شاء الله فعلها، وإن لم يشأ لم يفعلها. مثل: الاستواء، والمجيء، والخلق والرزق" (١). والصفات الفعلية قسمان: القسم الأول: هو الصفات الفعلية المُتَضَمَّنَة في الأسماء الحسنى، أي: التي يمكن أن يُشتق منها أسماء حسنى لله تعالى، مثل: صفة (الخلق) يُشتق منها اسم الله تعالى(الخالق)، وصفة (الرزق) يشتق منها (الرازق)، و(الرزاق).

وأما القسم الثاني من الصفات الفعلية: فهو الصفات الفعلية غير المُتَضَمَّنَة في الأسماء الحسنى، أي: التي لا يصح اشتقاق أسماء لله تعالى منها. مثل صفة: الاستواء على العرش، فليس من أسماء الله تعالى المستوي على العرش، وصفة المجئ والاتيان يوم القيامة، فلا يصح أن يُشتق منها الجايء والآتي؛ لأنهما ليسا من أسماء الله تعالى الثابتة بالكتاب والسنة، فأسماء الله _ تعالى _ وصفاته توقيفية لا مجال للعقل في اثباتها أو نفيها. وموضوع هذا البحث هو القسم الثاني من الصفات الفعلية، فهو يبحث في التوجيه البلاغي لآيات الصفات الفعلية غير المُتَضَمَّنَة في الأسماء الحسنة في ضوء منهجي أهل السنة والمعتزلة، وذلك من خلال أنموذجين لأهل السنة والمعتزلة: الأول (جامع البيان للطبري)، والثاني

(*) هذا البحث مستل من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: [الحقيقة والمجاز في آيات الصفات بين أهل السنة والمعتزلة (دراسة بلاغية)]، وتحت إشراف: أ.د. بهاء محمد محمد عثمان - كلية الآداب – جامعة سوهاج & أ.د. هناء عابدين عبد الله – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

(١) الصفات الإلهية: تعريفها وأقسامها، د/ محمد بن خليفة بن علي التميمي ــ دار أضواء السلف ــ الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م. ص: ٦٥،٦٦

(الكشاف للزمخشري). وفيما يلي عرض لبعض تلك الصفات وبيان التوجيه البلاغي لها وفق المنهجين، ومن خلال التفسيرين.

صفة: الاتيان والمجيء

صفة الاتيان والمجيء، من صفات الأفعال، أي إذا شاء الله فعلها وإذا لم يشأ لم يفعلها، ودليلها من القرآن قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]**، وقوله تعالى:** ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢] .

المعنى اللغوي:

" أتى: الإتيان مجيء بسهولة... والإتيان يقال للمجيء بالذات وبالأمر وبالتدبير. ويقال في الخير وفي الشر وفي الأعيان والأعراض" [(١)]. والإتيان: يَدُلُّ عَلَى مَجِيءِ الشَّيْءِ وَإِصْحَابِهِ وَطَاعَتِهِ. ورَجُلٌ أَتِيٌّ: إِذَا كَانَ نَافِذًا [(٢)]. والإتيان هو:" وصولٌ أو تقدم وحضور إلى مكان أو شيء بتهيئة أو قوة تزيل ما يعوق، مع خفاء مصدر أي عدم تَعَيُّنِه أو توجيه الملاحظة إليه" [(٣)]. يفهم مما سبق أن الإتيان بمعنى: المجيء بسهولة، والنفاذ، والوصول، والحضور.

جاء: جاء يجيء جيئة ومجيئًا، والمجيء كالإتيان لكن المجيء أعم لأن الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول، ويقال جاء في الأعيان والمعاني لِمَا يكون مجيئُه بذاته وبأمره ولمن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا [(٤)].

أولًا: تفسير أهل السنة:

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ **[البقرة: ٢١٠] " يعني بذلك جل ثناؤه: هل ينظر المكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به، إلا أن يأتيهم الله**

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، (د، ط)، (د، ت). ص: ٨

(٢) مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩ م. جـ١، ص: ٤٩، وما بعدها.

(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص: ٨

(٤) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها) د/ محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠١٠م.جـ١، ص:١٩٢

في ظلل من الغمام، والملائكة"[١]. وقال في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ **[الفجر: ٢٢] "وإذا جاء ربك يا محمد وأملاكه صفوفا صفا بعد صف [٢]. فسر الطبري الإتيان والمجيء في حق الله تعالى على الحقيقة اللائقة بالله تعالى، والمعنى الظاهر المفهوم من اللفظين المتبادر إلى الذهن. مع تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوقين.**

ثانيًا: تفسير المعتزلة:

قال الزمخشري في تفسير الإتيان في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ **[البقرة: ٢١٠] " إتيان الله إتيان أمره وبأسه كقوله:(وْيَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ)، (جاءَهُمْ بَأْسُنا)" [٣].**

وفسر المجيء في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ **[الفجر: ٢٢] "فإن قلت: ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة قلت: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه، مُثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم" [٤]. الإتيان والمجيء عند الزمخشري مجاز لا حقيقة.**

التوجيه البلاغي وفق منهج أهل السنة:

يثبت أهل السنة صفة الإتيان والمجيء لله تعالى على الحقيقة، على الوجه اللائق بجلال الله وكماله وعظمته، بلا كيف ولا تشبيه. ويفهم من تفسيرات الطبري لصفتي الإتيان والمجيء في حق الله تعالى أنه مثبت لهما على الحقيقة، في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ **[البقرة: ٢١٠]وقوله تعالى:**﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ **[الفجر: ٢٢] يأتي الله تعالى يوم القيامة إتيان حقيقي كما أخبر عن نفسه ومعه الملائكة ليحكم بين**

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق الدكتور/ عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م. جـ٣، ص:٦٠٥

(٢) السابق، جـ٢٤، ص:٣٨٤

(٣) الكشاف، للزمخشري، وبحاشيته (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال) لأحمد بن المنير السكندري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ. جـ١، ص:٢٥٣

(٤) السابق، جـ٤، ص:٧٥١

العباد، ولا يمكن لعقل بشري أن يتصور أو يتخيل كيفية هذا المجيء؛ لكنه مشهد عظيم." وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حُشِي من الأهوال والشدائد والفظائع، ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيئ على المفسدين. وذلك أن الله تعالى يطوي السماوات والأرض، وتنثر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام، فتحيط بالخلائق، وينزل الباري [تبارك] وتعالى: {فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ} ليفصل بين عباده بالقضاء العدل. فتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهنالك يعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه" (١).

التوجيه البلاغي وفق منهج المعتزلة:

من خلال تفسير الزمخشري لصفتي الإتيان والمجيء يفهم أن الإتيان والمجيء في حق الله تعالى مجاز لا حقيقة. في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ **[البقرة: ٢١٠] مجاز بحذف المضاف وتقدير الكلام: أن يأتيهم أمر ربك. وقوله تعالى:** ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ **[الفجر: ٢٢] المجيء: استعارة تمثيلية، حيث شبه الهيئة الحاصلة من ظهور آيات اقتدار الله، وتبين آثار قهره وسلطانه في ذلك اليوم العظيم، بهيئة المَلِك إذا حضر بنفسه، وما يترتب على ذلك من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم. وهي استعارة تمثيلية تصريحية، وبما أن الحركة والانتقال غير جائز في حق الله تعالى فالقرينة عقلية.**

وهذا التوجيه مردود؛ لأنه لا قرينة تدل على المجاز، سوى دعوى الاستحالة العقلية، وذلك وفق منهج المعتزلة في تغليب العقل على النقل، ولَيّ أعناق النصوص لموافقة منهجهم القائم على نفي الصفات الإلهية، والقرينة العقلية لا تكفي وحدها في إثبات ما ذهبوا إليه من هذا التأويل الباطل. ويؤيد صحة ما ذهب إليه أهل السنة من القول بالحقيقة في الآيات السابقة ما جاء في السنة، قال رسول الله - ﷺ -:" يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه. قال: فيقول المؤمنون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله، فيقول: أنا ربكم. فيقولون:

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى١٤٢٠هـ /٢٠٠٠ م. ص:٩٤

أنت ربنا فيتبعونه"[١]. ومعلوم أن السنة النبوية شارحة ومؤكدة للقرآن الكريم، وقد دلت على أن مجيء الله وإتيانه حقيقة على ما يليق به سبحانه.

صفة الاستهزاء بالكافرين:

الاستهزاء بالكافرين صفة فعلية لله تعالى، وهي ثابتة بالقرآن الكريم، قال تعالى:﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ **[البقرة: ١٤-١٥]**

المعنى اللغوي:

الهُزْءُ والهُزُؤُ: السُّخْرِيةُ. يُقَالُ: هَزِئَ وَاسْتَهْزَأَ به، إِذَا سَخِر منه [٢].

أولًا: تفسير أهل السنة:

بين الطبري معنى الاستهزاء في الآية السابقة [البقرة: -١٥] بعد أن ذكر ما كان من خلاف في معنى هذه الصفة:" والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا، أن معنى الاستهزاء في كلام العرب: "إظهار الْمُسْتَهْزِئِ لِلْمُسْتَهْزَإِ به من القول والفعل ما يرضيه ويوافقه ظاهرًا، وهو بذلك من قيله وفعله به مُوَرِّثُهُ مساءة باطنًا، ... والله جل جلاله مع إظهاره ما قد أظهر لهم من الأحكام الملحقتهم في عاجل الدنيا وآجل الآخرة إلى حال تمييزه بينهم وبين أوليائه وتفريقه بينهم وبينهم؛ معد لهم من أليم عقابه ونكال عذابه ما أعد منه لأعدى أعدائه وأشر عباده، حتى ميز بينهم وبين أوليائه فألحقهم من طبقات جحيمه بالدرك الأسفل. كان معلوما أنه جل ثناؤه بذلك من فعله بهم، وإن كان جزاء لهم على أفعالهم وعدلا ما فعل من ذلك بهم لاستحقاقهم إياه منه بعصيانهم له كان بهم بما أظهر لهم من الأمور التي أظهرها لهم من إلحاقه أحكامهم في الدنيا بأحكام أوليائه وهم له أعداء، وحَشْرِه إياهم في الآخرة مع المؤمنين وهم به من المكذبين إلى أن ميز بينهم وبينهم، مستهزئًا وساخرًا ولهم خادعًا وبهم ماكرًا. إذ كان معنى الاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة ما وصفنا قبل، دون أن يكون ذلك معناه في حال فيها المستهزئ بصاحبه له ظالم أو عليه فيها غير عادل، بل ذلك معناه في كل أحواله إذا وجدت الصفات التي قدمنا ذكرها في

---

(١) صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة ـ دمشق، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣م. رقم:٦٥٧٣، وصحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م. رقم:١٨٢

(٢) ينظر مقاييس اللغة، ولسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية، (د، ت). : مادة: [هزء].

معنى الاستهزاء وما أشبهه من نظائره. وبنحو ما قلنا فيه رُوِيَ الخبر عن ابن عباس ... في قوله: {الله يستهزئ بهم} قال: يسخر بهم للنقمة منهم "[1].

يتضح من كلام الطبري أن استهزاء الله تعالى بالكافرين حقيقة، فكما أن المنافقين يظهرون للرسول ـ ﷺ ـ وللمؤمنين في أمور الدين خلاف ما يبطنون، فالله ـ عز وجل ـ يظهر للمنافقين من الأحكام في الدنيا غير ما أخفاه عنهم في الآخرة من العذاب وسوء العقاب، فاستهزاء الله بالكافرين عدل وحق وحقيقة.

ثانيًا: تفسير المعتزلة:

قال الزمخشري في تفسير استهزاء الله تعالى بالكافرين: "فإن قلت: لا يجوز الاستهزاء على اللَّه تعالى، لأنه متعال عن القبيح، والسخرية من باب العيب والجهل. ألا ترى إلى قوله: (قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ)، فما معنى استهزائه بهم؟ قلت: معناه إنزال الهوان والحقارة بهم، لأنّ المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به، وإدخال الهوان والحقارة عليه، والاشتقاق كما ذكرنا شاهد لذلك. وقد كثر التهكم في كلام اللَّه تعالى بالكفرة. والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون. ويجوز أن يراد به ما مر في: (يُخادِعُونَ) من أنه يجرى عليهم أحكام المسلمين في الظاهر، وهو مبطن بادخار ما يراد بهم، وقيل: سمى جزاء الاستهزاء باسمه كقوله: (وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها)، (فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ)"[2]. يتضح من كلام الزمخشري السابق أن استهزاء الله تعالى بالكافرين على سبيل المجاز.

التوجيه البلاغي وفق منهج أهل السنة:

يستهزأ الله ـ عز وجل ـ بالكافرين استهزاء حقيقيًا، على ما يليق بجلاله وكماله وعظمته، بلا تشبيه ولا كيف كما أخبر عن نفسه سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ **[البقرة: ١٤-١٥] فضح الله المنافقين، وأظهر خبيئة أنفسهم، وجعل سرهم علانية يتلى إلى يوم الدين، فقد كانوا**

(١) جامع البيان، جـ١، ص:٣١٦
(٢) الكشاف، وبحاشيته كتاب الانتصاف، جـ١، ص:٦٦،٦٧

يظهرون الإيمان أمام الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه، ويبطنون الكفر، وإذا رجعوا إلى شياطينهم من الإنس وكبرائهم أظهروا حقيقتهم الخبيثة، ولا شيء أضر على الأمة من النفاق والخيانة.

عبر المولى سبحانه عن حال المنافقين بقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ **وهي جملة خبرية مؤكدة بمؤكدين (إنَّ)، واسميتها فهم يؤكدون لشياطينهم أنهم مازالوا على عهدهم معهم من الكفر والضلال فلم ولن يبرحوه. وجيء بالمسند اسمًا (مستهزءون) لإفادة كلامهم معنى دوام صدور الاستهزاء منهم وثباته بحيث لا يحولون عنه (١).**

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ **جملة خبرية صادقة، فمعلوم أن الخبر قول يحتمل الصدق والكذب لذاته، فإن هذه الجملة لا تحتمل إلا الصدق، لأنها خبر عن الله سبحانه، فكل ما أخبر به الله تعالى فيما فات، أو ما هو آت في قابل أيام الدنيا أو الآخرة حق كما أخبر. وقد جاء المسند فعلًا مضارعًا لإفادة الحدوث، وتجدد استهزاء الله بالكافرين مرة بعد مرة. ومجيء المسند إليه اسمًا مقدمًا على المسند الفعلي ما يفيد التوكيد على مضمون الجملة ويفيد القصر.**

وفي تصدير الجملة بلفظ الجلالة (الله) وما لهذا الاسم العظيم من وقع قوي على النفوس حينما يقرع الآذان لفظه؛ لما فيه من معاني الجلال والكمال والمهابة والوقار، واشتماله على كل معاني الصفات الإلهية من جبر وقهر، وحلم ورحمة، وسمع وبصر، ما يجمع شتات القلوب وانشغال العقول وتفرق الجوارح لما يتلى بعده فيستقر في النفس أن الله فاعل بالكافرين كما أخبر على الحقيقة.

وقد فُصِل بين الجملتين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ و﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾**؛ لأن بينهما شبه كمال اتصال، وهو الاستئناف البياني، فالجملة الأولى مثيرة لسؤال مضمونه: ومن الذي يتولى الرد على المنافقين ومجازاتهم بما يستحقون؟ " فكان للاستئناف بقوله: الله يستهزئ بهم غاية الفخامة والجزالة، وهو أيضا واقع موقع الاعتراض والأكثر في الاعتراض ترك العاطف. وذكر يستهزئ دليل على أن مضمون الجملة مجازاة على استهزائهم. ولأجل اعتبار الاستئناف قدم اسم الله تعالى على الخبر الفعلي. ولم يقل يستهزىء الله بهم؛ لأن مما يجول في خاطر السائل أن يقول من الذي يتولى مقابلة سوء صنيعهم؟ فأعلم أن الذي يتولى ذلك هو رب العزة تعالى،**

(١) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ـ تونس، سنة: ١٩٨٤هـ. جـ١، ص:٢٩٤

وفي ذلك تنويه بشأن المُنتَصَر لهم وهم المؤمنون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ **[الحج: ٣٨] "[١].**

التوجيه البلاغي وفق منهج المعتزلة:

لا يثبت المعتزلة صفة الاستهزاء بالكافرين لله تعالى على الحقيقة؛ لأنهم يرون أن الاستهزاء من القبيح، والسخرية من باب العيب والجهل، وهذا لا يجوز في حق الله تعالى، لأن الله تعالى منزه عن فعل القبيح"[٢].

أَوَّلَ الزمخشري الاستهزاء المسند إلى الله تعالى بالمجاز، وذكر ثلاثة أقوال جميعها تدور في فلك المجاز اللغوي، الأول: أن استهزاء الله بالكافرين معناه إنزال الهوان والحقارة بهم "فيكون من قبيل المجاز المرسل لعلاقة السببية في التصور والمسببية في الوجود، والفائدة المخصوصة بهذا المجاز التنبيه على أن مذهبهم حقيق بأن يسخر منه ويسخر بهم لأجله"[٣]. الثاني: أن استهزاء الله بالكافرين على سبيل الاستعارة التمثيلية: حيث شبه ما يكون من الله تعالى من إضمار العذاب والعقاب والهوان، وإظهاره لهم غير ذلك مما يحسبوه خيرًا لهم، بحال من يستهزئ بخصمه فهو يظهر لخصمه غير ما يبطن. وهذا يفهم من قوله:" أنه يجري عليهم أحكام المسلمين في الظاهر، وهو مبطن بادخار ما يراد بهم"[٤]. وأما الثالث: الاستهزاء المسند إلى الله تعالى هو جزاء وعقوبة للكافرين لاستهزائهم بالمؤمنين، فالاستهزاء الواقع من الكافرين حقيقة، والمسند إلى الله تعالى مجاز مرسل علاقته السببية، وهذا مراد الزمخشري من قوله: "وقيل: سمى جزاء الاستهزاء باسمه"[٥]. وقد ساغ ذلك" لما بين الفعل وجزائه من ملابسة قوية ونوع سببية مع وجود المشاكلة المحسنة ههنا"[٦]. وعلاقة المجاز في جميع ما سبق عقلية؛ لاستحالة المعنى في حق الله تعالى.

وقد أدار الطبري نقاشًا طويلًا ردًا على القائلين بالمجاز ونفي الحقيقة في صفة استهزاء الله بالكافرين مفاده أنه ليس كل استهزاء مذمومًا معيبًا، فإذا كان الاستهزاء

---

(١) السابق، جـ١، ص:٢٩٣

(٢) الكشاف، وبحاشيته كتاب الانتصاف، جـ١، ص:٦٦، ومتشابه القرآن، القاضي عبد الجبار، تحقيق: عدنان زرزور، دار التراث ــ القاهرة، جـ٢، ص:٥٦،٥٧

(٣) الكشاف ومعه حاشية الجرجاني، وكتاب الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير السكندري، مطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأخيرة، ١٣٣٢هـ،١٩٧٢م. جـ١ ص:١٨٦

(٤) الكشاف، جـ١، ص:٦٦، وينظر حاشية الشريف الجرجاني على الكشاف: جـ١، ص:١٨٩

(٥) السابق: جـ١، ص:٦٦

(٦) الكشاف مع حاشية الجرجاني، جـ١.: ص١٨٩

بغير ظلم أو جور من المستهزئ، وكان المُستهزَأ بهم استحقوه بسوء فعلهم كان الاستهزاء محمودًا. وهذا ما كان من الله تعالى في حق الكافرين.

ومن جهة أخرى لا دليل على المجاز عند القائلين به إلا القرينة العقلية التي يعولون عليها دائمًا في نفي الصفات الإلهية عن الله ـ سبحانه ـ فهم يقيسون الصفات الإلهية على عقولهم البشرية القاصرة، وهو ما لا يصح في مقام الصفات الإلهية، بيد أن القرينة العقلية وحدها لا تكفي لإثبات المجاز ونفي الحقيقة.

صفة الاستواء على العرش:

صفة فعلية لله تعالى ثابتة بالقرآن الكريم، فقد ورد ذكر استواء الله تعالى على عرشه في القرآن في سبع آيات منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ **[الأعراف: ٥٤] وقوله تعالى:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ **[يونس: ٣] وقوله تعالى:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ **[طه: ٥] .**

المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: " (سَوِيَ) السِّينُ وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى اسْتِقَامَةٍ وَاعْتِدَالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ. يُقَالُ هَذَا لَا يُسَاوِي كَذَا، أَيْ لَا يُعَادِلُهُ. وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ عَلَى سَوِيَّةٍ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، أَيْ سَوَاءٍ"(١). والاستواء بمعنى العلو والارتفاع"(٢)

أولًا: تفسير أهل السنة:

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ **[طه: ٥] " الرحمن على عرشه ارتفع وعلا"(٣). وقال في تفسير قوله تعالى:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ **[الأعراف: ٥٤] " فإنه يعني: علا عليه"(٤). فسر الطبري الاستواء في حق الله تعالى بمعنى: العلو والارتفاع.**

---

(١) مقاييس اللغة، جـ٣: ص: ١١٢

(٢) جامع البيان، جـ١٣: ص: ٤١١، جـ١٦: ص: ١١، جـ١٧: ص: ٤٨٠، وينظر: تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني، تحقيق/ ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض ــ السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. جـ٣، ص: ٣٢٠

(٣) جامع البيان، جـ١٦: ص: ١١

(٤) جامع البيان، جـ١٣: ص: ٤١١، وينظر: جـ١٧: ص: ٤٨٠

ثانيًا: تفسير المعتزلة:

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]" لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك، جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش يريدون مَلك وإن لم يقعد على السرير البتة"(١). فسر الزمخشري الاستواء على العرش بمعنى: المُلك.

التوجيه البلاغي وفق منهج أهل السنة:

يثبت أهل السنة استواء الله على عرشه كما أخبر سبحانه عن نفسه، على الوجه اللائق بكماله وجلاله وعظمته، بلا تشبيه ولا كيف. "وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا شيئا من ذلك لم ينفوا معناه، بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية. كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى: الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة... وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول. فليس في أهل السنة من ينكره. وقد بيّن أن الاستواء معلوم، كما أن سائر ما أخبر به معلوم، ولكن الكيفية لا تعلم، ولا يجوز السؤال عنها، لا يقال: كيف استوى؟ ولم يقل مالِك: الكيف معدوم، وإنما قال: الكيف مجهول... لا تخطر كيفيته ببال، ولا تجري ماهيته في مقال"(٢).

ويفهم من خلال تفسيرات الطبري لصفة الاستواء على العرش في حق الله تعالى أنه مثبت لها على الحقيقة. ففي قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] قال:" الرحمن على عرشه ارتفع وعلا"(٣). فقد فسر الاستواء بالارتفاع والعلو، وهو تفسير بدلالة المطابقة.

وقد عبر المولى سبحانه عن ذاته بالرحمن؛ لأن الرحمن من أخص أسمائه تعالى، ولم يتسمَ به أحد من خلقه، ولا اتصف به، ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا الاسم الكريم من معاني الرحمة والرأفة والرفق والحنو على الخلق" فَذَكَرَ الِاسْتِوَاءَ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنِ لِيَعُمَّ جَمِيعَ خَلْقِهِ بِرَحْمَتِهِ" (٤). ومَجِيء المسند إليه(الرحمن) معرفا بـ (أل)

---

(١) الكشاف، وبحاشيته كتاب الانتصاف، جـ٣: ص: ٥٢

(٢) محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى ـ ١٤١٨هـ.جـ٣: ص: ٢٧٥

(٣) جامع البيان، جـ١٦: ص: ١١

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ. بتصرف يسير، جـ ١، ص: ٣٨

ما يفيد التحقيق والتعظيم، وفي تقديم الجار والمجرور (على العرش) على المسند الفعلي(استوى)، ما يفيد الاهتمام بالمقدم جريًا على عادة العرب في تقديم الأهم، ويفيد الاختصاص، أي اختصاص الرحمن وحده في الاستواء على العرش استواء حقيقي على الوجه اللائق به سبحانه، وهي جملة خبرية تفيض بمعاني العظمة والجلال، والعزة والسلطان.

التوجيه البلاغي وفق منهج المعتزلة:

فسر الزمخشري الاستواء على العرش بأنه كناية عن الملك، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ **[طه: ٥] وقول الزمخشري بالكناية له ظاهر وباطن، أما الظاهر فيدل على أن الاستواء على العرش كناية عن الملك، ولا يمتنع في أسلوب الكناية إرادة المعنى الأصلي وهو استواء الله تعالى على الحقيقة، وهذا ما يأباه المعتزلة؛ وحجتهم تنزيه الله تعالى عن الانتقال والحلول. وأما باطن قوله يدل على أنه يريد المجاز، فالاستواء استعارة تمثيلية. وهو ما أكده الإمام الطيبي في حاشيته على الكشاف إذ يقول:"** ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ **[طه: ٥] كناية عن الملك من غير إرادة الحقيقة"(١). فقوله من غير إرادة الحقيقة لا يحتمل إلا المجاز قال الطاهر ابن عاشور:" وأما ذكر الاستواء فتأويله أنه تمثيل لشأن عظمة الله بعظمة أعظم الملوك الذين يجلسون على العروش. وقد عرف العرب من أولئك ملوك الفرس وملوك الروم وكان هؤلاء مضرب الأمثال عندهم في العظمة"(٢).**

فقد شبه الهيئة الغيبية الحاصلة من استواء الله تعالى على العرش بهيئة جلوس أعظم الملوك على عروشهم، على سبيل الاستعارة التمثيلية، ولاستحالة المعنى على الله تعالى فالقرينة عقلية.

يتبين مما سبق أن استواء الله على عرشه عند أهل السنة يعني ارتفاع الله وعلوه على العرش، على ما يليق به سبحانه من غير كيف ولا تشبيه، فالاستواء حقيقة لا مجاز فيه. وأن الاستواء على العرش في حق الله تعالى عند المعتزلة مجازلا حقيقة.

وقد انبرى الكثير من علماء أهل السنة للرد على المعتزلة في قولهم بالمجاز في صفة الاستواء، وادعاء أن معنى (استوى): عَلَا وارتفع. قال ابن تيمية: "شذ قوم فقالوا: العرش بمعنى المُلْك وهو عدول عن الحقيقة إلى التجوز مع مخالفة الأثر. ألم

(١) الكشاف مع حاشية الطيبي، جـ١٣: ص: ٤٨٠
(٢) التحرير والتنوير، جـ١٦: ص: ١٨٧

يسمعوا قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥعَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] أَفَتَرَاه كان المُلك على الماء؟"[١].

قال القاسمي: "ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا تعالى، إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله عزّ وجلّ على الأشهر والأظهر من وجوهه، ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم. ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع، ما ثبت شيء من العبادات. وجلّ الله أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين. والاستواء معلوم في اللغة مفهوم، وهو العلوّ والارتفاع على الشيء، والاستقرار والتمكن فيه. قال أبو عبيدة في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، قال: علا، قال: تقول العرب: استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت. وقال غيره: استوى أي استقر وفيه دليل على أن الله تعالى في السماء، على العرش من فوق سبع سماوات، كما قالت الجماعة. وهو حجتهم على المعتزلة والجهمية "[٢]. فالأصل في الكلام الحقيقة، والله سبحانه وتعالى يخاطب الناس بما يفهمون، حتى يتحقق لهم الإيمان واليقين.

ثم يدلل القاسمي على صحة منهج أهل السنة فيقول:" والدليل على صحة ما قاله أهل الحق في ذلك قوله تعالى: الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى [طه: ٥]، ثم ساق عدة آيات في ذلك ـ وقال: هذه الآيات كلها واضحات في إبطال قول المعتزلة. وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء، وقولهم في تأويل اسْتَوى استولى، فلا معنى له، لأنه غير ظاهر في اللغة. ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة، والله تعالى لا يغالبه أحد، وهو الواحد الصمد"[٣].

ثم يروي قصة وقعت للخليل بن أحمد، يدلل بها على أن الاستواء بمعنى الارتفاع يقول:" قال الخليل: أتيت أبا ربيعة الأعرابي، وكان من أعلم ما رأيت، فإذا هو على سطح، فسلمنا، فرد علينا السلام، وقال: (استووا) فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال، فقال لنا أعرابيّ إلى جانبه: إنه أمركم أن ترقّعوا، فقال الخليل: هو من قول الله **﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، فصعدنا إليه"[٤].**

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ـ المدينة المنورة ـ السعودية، ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م، جـ١٦: ص: ٤٠٣

(٢) محاسن التأويل، جـ٥: ص: ٧٨

(٣) السابق، جـ٥: ص: ٧٨

(٤) السابق، جـ٥: ص: ٧٨

فأهل السنة مقرون بأن العرش فوق السماوات السبع، وأن الله تعالى فوق العرش حقيقة، وأن ذاته فوق ذات العرش، لا ينكرون علو الله تعالى على خلقه، ولا ينكرون معنى الاستواء في حق الله تعالى على ما يليق به سبحانه، فقد ورد ذكر الاستواء على العرش في سبع آيات في القرآن الكريم لا يمكن تأويل واحدة منها بالمجاز. وأما المعتزلة فيتجوزون في الاستواء، دافعهم تنزيه الله تعالى عن الجسمية التي تقتضي الحركة والحلول، وحجتهم الاستحالة العقلية، والعقل البشري قاصر عن إدراك تلك الغيبيات، فالذي أخبر أنه استوى على العرش هو الله ﷻ، والذي أنكر الاستواء مخلوق ضعيف من مخلوقاته يُسَمى (العقل) فكيف يُكَذَّب الخالق، ويُصَدق المخلوق!؟

صفة: الخداع لمن خادعه

خداع الله لمن خادعه من الصفات الفعلية لله تعالى الثابتة بالكتاب ولا يوصف الله تعالى بالخداع على الاطلاق وإنما يقيد بمخادعة من خادعه، ووصف الله تعالى بهذه الصفة على سبيل المدح.قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ **[النساء: ١٤٢] وقال تعالى:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ **[البقرة: ٨-٩]**

المعنى اللغوي:

الْإِخْدَاعُ إِخْفَاءُ الشَّيْءِ. وسُمِّيَتِ الْخِزَانَةُ الْمَخْدَعَ. والْحَرْبُ خُدْعَةٌ. وَيُقَالُ خَدَعَ الرِّيقُ فِي الْفَمِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَخْفَى فِي الْحَلْقِ وَيَغِيبُ. وَلِفُلَانٍ خُلُقٌ خَادِعٌ، إِذَا تَخَلَّقَ بِغَيْرِ خُلُقِهِ؛ لِأَنَّهُ يُخْفِي خِلَافَ مَا يُظْهِرُهُ. الْخَيْدَعُ، وَهُوَ السَّرَابُ (١). وخَدَعَهُ يَخْدَعُهُ خَدْعاً وخِداعاً، أي ختله وأراد به المكروه من حيث لا يعلم (٢).

أولًا: تفسير أهل السنة:

فسر الطبري الخداع الواقع من المنافقين لربهم ، وخداع الله لهم بقوله:" وَخِدَاعُ الْمُنَافِقِ رَبَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ إِظْهَارُهُ بِلِسَانِهِ مِنَ الْقَوْلِ وَالتَّصْدِيقِ خِلَافَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مِنَ الشَّكِّ وَالتَّكْذِيبِ لِيَدْرَأَ عَنْ نَفْسِهِ بِمَا أَظْهَرَ بِلِسَانِهِ حُكْمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، اللَّازِمَ مَنْ كَانَ بِمِثْلِ حَالِهِ مِنَ التَّكْذِيبِ لَوْ لَمْ يُظْهِرْ بِلِسَانِهِ مَا أَظْهَرَ مِنَ التَّصْدِيقِ وَالْإِقْرَارِ، مِنَ الْقَتْلِ وَالسِّبَاءِ، فَذَلِكَ خِدَاعُهُ رَبَّهُ وَأَهْلَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ.... وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقَ يُخَادِعُ اللَّهَ جَلَّ

(١) مقاييس اللغة: [خدع] .
(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية:[خدع]، ولسان العرب:[خدع] .

ثَنَاوُهُ بِكَذِبِهِ بِلِسَانِهِ عَلَى مَا قَدْ تَقَدَّمَ وَصْفُهُ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ اسْمُهُ خَادِعُهُ بِخُذْلَانِهِ عَنْ حُسْنِ الْبَصِيرَةِ بِمَا فِيهِ نَجَاةُ نَفْسِهِ فِي آجِلِ مَعَادِهِ، كَالَّذِي أَخْبَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ **[آل عمران: ١٧٨] (١). فسر الطبري خداع المنافقين لله بأنهم يظهرون غير ما يبطنون. وخداع الله لهم أن طمس على بصائرهم فلا يهتدون، ويوم القيامة يدخلهم النار.**

ثانيًا: تفسير المعتزلة:

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ **[النساء: ١٤٢] "يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر، وَهُوَ خادِعُهُمْ وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ولم يخلهم في العاجل من فضيحة وإحلال بأس ونقمة ورعب دائم. والخادع: اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه (٢).**

التوجيه البلاغي وفق منهج أهل السنة:

يثبت أهل السنة صفة الخداع لله تعالى على الحقيقة مقيدة لا على اطلاقها، فالله عز وجل خادع لمن خادعه؛ وذلك على الوجه اللائق بجلاله وكماله وعظمته.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ **[النساء: ١٤٢] جملة اسمية خبرية اشتملت على مؤكدين (إن) واسمية الجملة للتأكيد على قبح صنيع المنافقين، وجاءت على خلاف مقتضى الظاهر، فنزل خالي الذهن منزلة المنكر لبيان ما انطوت عليه ضمائر المنافقين من الكفر والضلال، وكان التعبير بصيغة الجمع أنسب للمقام لدلالته على شمول جميع المنافقين بحكم واحد، والتعبير بالفعل المضارع (يخادعون) للدلالة على تجدد واستمرار الخداع منهم مرة بعد مرة ، وقد جاء التعبير القرآني في حق الله تعالى بالاسم (خادعهم) الدال على الثبوت والدوام؛ لأن الله عالم بحالهم مطلع على خبيئة أنفسهم، فخداعه لهم ثابت دائم.**

والمراد "أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ بِإِحْرَازِهِمْ بِنِفَاقِهِمْ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَاللَّهُ خَادِعُهُمْ بِمَا حَكَمَ فِيهِمْ مِنْ مَنْعِ دِمَائِهِمْ بِمَا أَظْهَرُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ، مَعَ عِلْمِهِ

(١) جامع البيان، جـ١، ص: ٢٨٠،٢٨١
(٢) الكشاف، وبحاشيته كتاب الانتصاف، جـ١، ص: ٥٧٩

بِبَاطِنِ ضَمَائِرِهِمْ، وَاعْتِقَادِهِمُ الْكُفْرَ، اسْتِدْرَاجًا مِنْهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَلْقَوْهُ فِي الْآخِرَةِ، فَيُورِدُهُمْ بِمَا اسْتَبْطَنُوا مِنَ الْكُفْرِ نَارَ جَهَنَّمَ"(١).

التوجيه البلاغي وفق منهج المعتزلة:

يفهم من خلال تفسير الزمخشري لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾**[النساء: ١٤٢] أن خداع المنافقين لله تعالى مجاز، وخداع الله تعالى للمنافقين أيضًا مجاز لا حقيقة. حيث شبه حال المنافقين من إظهار الإيمان وإضمار الكفر والضلال، بحال من يخادع خصمه فيحتال عليه بالحيل والمكائد، وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية.**

وخداع الله للمنافقين استعارة تمثيلية ـ أيضًا ـ فقد شبه فعل الله بالمنافقين حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، بحال المخادع الغالب أعدائه، فهو يظهر لهم ما يحبون، ويضمر لهم ما يكرهون من إرادة إضرارهم وإهلاكهم.

وتفسير خداع الله تعالى للمنافقين بالمجاز يفضي إلى نفي حقيقة هذه الصفة عن الله تعالى، استنادًا إلى أن الخداع مذموم، وأنه من صفات النقص والعيب على الإطلاق، وهذا ما لا يليق بالله تعالى.

وهذا التوجيه مردود عليه؛ لأنه لا يصح جعل الخداع صفة نقص على الإطلاق، إذ الخداع في مقامه حق وعدل. والأصل في الألفاظ الحقيقة، فلا يصرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة، ولا توجد ـ هنا ـ قرينة تُسوغ ذلك، فخداع الله تعالى للمنافقين حقيقة لا مجاز فيه؛ لأن الخداع تدبير فيما يضر الخصم خفية، وهذا متحقق من الله تعالى لاستدراجه المنافقين بما أفاض عليهم من النعم، وأضمر لهم من النقم.

صفة: الخُلَّة

الخلة صفة فعلية لله تعالى، فالله عز وجل يخالل من شاء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ **[النساء: ١٢٥] وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وَسَلَّمَ: " لَوْ كنت متخذا خليلا لتخذت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا. وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي. وَقَدِ اتَّخَذَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا"(٢). يعني نفسه ـ ﷺ ـ .**

(١) جامع البيان، جـ٧، ص: ٦١١
(٢) صحيح مسلم، جـ٤، ص: ١٨٥٥، حديث رقم:٢٣٨٣

المعنى اللغوي:

قال ابن فارس"(خَلَّ) الْخَاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَتَقَارَبُ فَرَوْعُهُ، وَمَرْجِعُ ذَلِكَ إِمَّا إِلَى دِقَّةٍ أَوْ فُرْجَةٍ"(١). وَالْخِلُّ: الْوُدُّ وَالصَّدِيقُ. والْمُخَالَّةُ: ًالْمُصَادَقَةُ. وَالْخَلِيلُ: الصَّدِيقُ (٢). والخَلَّة، بِالْفَتْحِ: الْحَاجَةُ وَالْفَقْرُ، ورجل خليل: مُعْدِم فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ (٣).

ونقل ابن منظور عن اللحياني قوله: الخُلَّة، بِالضَّمِّ: الصَّدَاقَةُ وَالْمَحَبَّةُ الَّتِي تخلَّلت الْقَلْبَ فَصَارَتْ خِلالَه أَي فِي بَاطِنِهِ. والخَلِيل: الصَّدِيق، فَعِيل بِمَعْنَى مُفَاعِل، وَقَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ. ونقل عن ابن دريد: مَعْنَى الخَلِيل: الَّذِي أَصْفى الْمَوَدَّةَ وأَصَحَّها، والخَلِيل المُحِبُّ الَّذِي لَيْسَ فِي مَحَبَّتِهِ خَلَل. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا؛ أَي أَحبه مَحَبَّةً تامَّة لَا خَلَل فِيهَا؛ قَالَ: وَجَائِزٌ أَن يَكُونَ مَعْنَاهُ الْفَقِيرَ أَي اتَّخَذَهُ مُحْتَاجًا فَقِيرًا إِلى رَبِّهِ، قَالَ: وَقِيلَ لِلصَّدَاقَةِ خُلَّة لأَن كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَسُدُّ خَلَل صَاحِبِهِ فِي الْمَوَدَّةِ وَالْحَاجَةِ إِليه (٤).

أولًا: تفسير أهل السنة:

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥] "يعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ وَلِيًّا. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَمَا مَعْنَى الْخَلَّةُ الَّتِي أُعْطِيَهَا إِبْرَاهِيمُ؟ قِيلَ: ذَلِكَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْعَدَاوَةُ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِيهِ، وَالْوَلَايَةُ فِي اللَّهِ وَالْحُبُّ فِيهِ، عَلَى مَا يُعْرَفُ مِنْ مَعَانِي الْخَلَّةِ. وَأَمَّا مِنَ اللَّهِ لِإِبْرَاهِيمَ، فَنُصْرَتُهُ عَلَى مَنْ حَاوَلَهُ بِسُوءٍ، كَالَّذِي فَعَلَ بِهِ إِذْ أَرَادَهُ نَمْرُوذُ بِمَا أَرَادَهُ بِهِ مِنَ الْإِحْرَاقِ بِالنَّارِ، فَأَنْقَذَهُ مِنْهَا، وَأَعْلَى حَجَّتَهُ عَلَيْهِ إِذْ حَاجَّهُ، وَكَمَا فَعَلَ مَلِكُ مِصْرَ إِذْ أَرَادَهُ عَنْ أَهْلِهِ، وَتَمْكِينُهُ مِمَّا أَحَبَّ، وَتَصْيِيرُهُ إِمَامًا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنْ عِبَادِهِ وَقُدْوَةً لِمَنْ خَلَقَهُ فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَذَلِكَ مَعْنَى مُخَالَّتِهِ إِيَّاهُ (٥). فسر الطبري خلة الله لإبراهيم عليه السلام بمعنى الولاية، والنصرة على عدوه، والتمكين، وتصييره إمامًا وقدوة لمن بعده.

(١) مقاييس اللغة مادة: [خلل]، جـ٢، ص: ١٥٥
(٢) مختار الصحاح: [خ ل ل]، ص: ٩٦
(٣) لسان العرب: [خلل]، جـ١١، ص: ٢١٥
(٤) لسان العرب، جـ١١، ص: ٢١٨
(٥) جامع البيان، جـ٧، ص: ٥٢٩

ثانيًا: تفسير المعتزلة:

قال الزمخشري:" وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا مجاز عن اصطفائه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله[1].

التوجيه البلاغي وفق منهج أهل السنة:

يثبت أهل السنة صفة الخلة لله تعالى بلا كيف ولا تشبيه على الوجه اللائق بذاته المقدسة. ومن خلال تفسير الطبري لخلة الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام يفهم أن الخلة كناية عن الولاية والنصرة واختصاصه بالإمامة وجعله قدوة لمن بعده، مع إقرار الطبري بثبوت صفة الخلة لله تعالى على الحقيقة اللائقة بكمال الله تعالى وجلاله وعظمته.

التوجيه البلاغي وفق منهج المعتزلة:

ذكر الزمخشري صراحة أن الخلة مجاز عن اصطفاء الله تعالى لإبراهيم عليه السلام واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وعلى هذا التأويل (الخلة) استعارة تمثيلية، حيث شبه فِعْل الله عز وجل مع إبراهيم عليه السلام من اصطفائه واختصاصه بالكرامة، بحال الخليل مع خليله من إكرامه وصفاء وداده. وحذف المشبه وصرح بالمشبه به وهو (الخلة)، وادعي أن اصطفاء الله لسيدنا إبراهيم صار خلة حقيقية، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية التمثيلية. والقرينة عقلية؛ لاستحالة الخلة على الله تعالى وفق منهج المعتزلة.

صفة: السُخْريَّة من الكافرين

السخرية من الكافرين من الصفات الفعلية لله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **[التوبة: ٧٩]**

المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: السِّينُ وَالْخَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُسْتَقِيمٌ يَدُلُّ عَلَى احْتِقَارٍ وَاسْتِذْلَالٍ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُنَا سَخَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الشَّيْءَ، وَذَلِكَ إِذَا ذَلَّلَهُ لِأَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ. ...

(١) الكشاف، وبحاشيته كتاب الانتصاف، جـ١، ص: ٥٦٩

وَيُقَالُ سُفُنٌ سَوَاخِرُ مَوَاخِرُ. فَالسَّوَاخِرُ: الْمُطِيعَةُ الطَّيِّبَةُ الرِّيحِ. وَالْمَوَاخِرُ: الَّتِي تَمْخَرُ الْمَاءَ تَشُقُّهُ. وَمِنَ الْبَابِ: سَخِرْتُ مِنْهُ، إِذَا هَزِئْتَ بِهِ [١]. وَالِاسْمُ (السُّخْرِيَّةُ) بِوَزْنِ الْعُشْرِيَّةِ وَ (السُّخْرِيُّ) بِضَمِّ السِّينِ وَكَسْرِهَا وَ(سَخَّرَهُ) (تَسْخِيرًا) كَلَّفَهُ عَمَلًا بِلَا أُجْرَةٍ وَكَذَا (تَسَخَّرَهُ) [٢]. والتسخيرُ: التذليلُ... وَكُلُّ مَا ذَلَّ وَانْقَادَ أَو تهيأَ لَكَ عَلَى مَا تُرِيدُ، فَقَدْ سُخِّرَ لَكَ، وسَخِرْتُ مِنْ فُلَانٍ هِيَ اللُّغَةُ الفصيحةُ [٣]. تدور مادة: سخر على معاني التذلل واليسر، والاحتقار والهزء.

أولًا: تفسير أهل السنة:

فسر الطبري السخرية المضافة إلى الله تعالى، على شاكلة تفسيره الخداع المضاف إليه تعالى، وفحوى كلام الطبري أن سخرية الكافرين من المؤمنين إظهار الإيمان وإضمار الكفر، وسخرية الله عز وجل من الكافرين أن يجري عليهم أحكام المؤمنين ظاهرًا والتي بها تُعصم دمائهم، وتُحرز أموالهم، وفي الحقيقة أنه يملي لهم حتى إذا أخذهم لم يفلتهم فيوقع به في الآخرة أشد العذاب [٤].

ثانيًا: تفسير المعتزلة:

قال الزمخشري في تفسير السخرية في حق الله تعالى: "سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ كقوله: الله يستهزئ بهم في أنه خبر غير دعاء. ألا ترى إلى قوله وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ"[٥].

التوجيه البلاغي وفق منهج أهل السنة:

يثبت أهل السنة صفة السخرية لله تعالى على الحقيقة اللائقة بالله تعالى من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل. ويفهم من خلال تفسير الطبري لصفة السخرية في حق الله تعالى أنه مثبت لها على الحقيقة، وأن السخرية ليست مذمومة مطلقًا، فإن كانت السخرية في مقامها فهي حق وعدل وحكمة، وعندها تكون مدحًا لله تعالى. وقد عبر القرآن الكريم عن السخرية الواقعة من المنافقين في حق المؤمنين بالفعل المضارع للدلالة على تكرار ذلك الفعل منهم وتجدده مرة بعد مرة، وجاء التعبير عن سخرية الله تعالى بالمنافقين بالفعل الماضي للدلالة على التحقق والثبوت.

(١) مقاييس اللغة مادة: [سخر]، جـ٣، ص: ١٤٤
(٢) مختار الصحاح: [س خ ر]، ص: ١٤٤
(٣) لسان العرب: [سخر] جـ٤، ص: ٣٥٤
(٤) جامع البيان بتصرف، جـ١، ص: ٣١٤، وما بعدها.
(٥) الكشاف، وبحاشيته كتاب الانتصاف، جـ٢، ص: ٢٩٤

التوجيه البلاغي وفق منهج المعتزلة:

يفهم من تفسير الزمخشري لسخرية الله تعالى من المنافقين أنها على سبيل المجاز لا الحقيقة؛ لأنه جعل السخرية كالاستهزاء بالمنافقين. وبناء على ذلك، فإن سخرية الله تعالى من المنافقين استعارة تمثيلية، "فَإِسْنَادُ سَخِرَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ الَّذِي حَسَّنَتْهُ الْمُشَاكَلَةُ لِفِعْلِهِمْ، وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ عَامَلَهُمْ مُعَامَلَةً تُشْبِهُ سُخْرِيَةَ السَّاخِرِ، عَلَى طَرِيقَةِ التَّمْثِيلِ، وَذَلِكَ فِي أَنْ أَمَرَ الله نَبِيَّهُ بِإِجْرَاءِ أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ظَاهِرِهِمْ زَمَنًا ثُمَّ أَمْرِهِ بِفَضْحِهِمْ"(١). فقد شُبِّه فعل الله تعالى بالمنافقين من حيث أنه يظهر لهم الحلم والأناة وعصمة دمائهم وأموالهم، ويضمر لهم ما يستحقوا من العذاب الأليم، بحال الساخر الذي يظهر لأعدائه غير ما يضمر، والقرينة عقلية لاستحالة السخرية على الله تعالى، وحجتهم في ذلك أن السخرية فعلٌ قبيح، والله عز وجل منزه عن فعل القبيح. وتفسير سخرية الله تعالى من المنافقين بالمجاز يفضي إلى نفي حقيقة هذه الصفة عن الله تعالى، استنادًا إلى أن السخرية مذمومة، وأنها من صفات النقص والعيب على

الإطلاق، وهذا ما لا يليق بالله تعالى.

وهذا التوجيه مردود عليه؛ لأنه لا يصح جعل السخرية صفة نقص على الإطلاق، إذ السخرية في مقامها حق وعدل. والأصل في الألفاظ الحقيقة، فلا يصرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة، ولا توجد ـ هنا ـ قرينة تُسوغ ذلك، فسخرية الله تعالى من المنافقين حقيقة لا مجاز فيها؛ لأن السخرية تنطوي على معنى الاستهزاء بالخصوم والأعداء وتدبير ما يضرهم خُفية، وهذا واقع من الله تعالى حقيقة في شأن المنافقين.

صفة: الكتابة

الكتابة من الصفات الفعلية لله تعالى، وهي متعلقة بمشيئته وإرادته، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ **[آل عمران: ١٨١] وقوله تعالى:** ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ **[الأعراف: ١٤٤-١٤٥] .**

(١) التحرير والتنوير، جـ١٠، ص: ٢٧٥

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ **[الأنبياء: ١٠٥] وقوله تعالى:** ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ **[المجادلة: ٢١]**

المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: "(كَتَبَ) الْكَافُ وَالتَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالْكِتَابَةُ. يُقَالُ: كَتَبْتُ الْكِتَابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا"[١]. والكِتابُ مَا يُكْتَبُ فِيهِ؛ وَقِيلَ الصَّحِيفَةُ والدَّواة، وَقِيلَ: كَتَبَه: خَطَّه؛ واكْتَتَبَه: اسْتَمْلاه [٢]. والْكِتَابُ: الْفَرْضُ، والحُكْم، والقَدَر [٣]. والكاتب: العالم [٤].

والكَتِيبةُ: مَا جُمِعَ فَلَمْ يَنْتَشِرْ، وَقِيلَ: الكَتيبةُ جَمَاعَةُ الخَيْل إذا أَغارت، مِنَ الْمِائَةِ إِلى الأَلف. والكَتيبة: الْجَيْشُ وتَكَتَّبَتِ الخيلُ أَي تَجَمَّعَتْ. وكُلُّ مَا ذُكِرَ فِي الكَتْبِ قريبٌ بعضُه مِنْ بعضٍ، وإنما هُوَ جَمْعُكَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ. وَمِنْ ذَلِكَ سُمِّيَتِ الكَتِيبةُ لأَنها تَكَتَّبَتْ فاجْتَمَعَتْ؛ وَمِنْهُ قِيلَ: كَتَبْتُ الكِتابَ لأَنه يَجْمَع حَرْفاً إِلى حَرْفٍ [٥].

أولًا: تفسير أهل السنة:

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ **[المجادلة: ٢١] " يَقُولُ: قَضَى اللَّهُ وَخَطَّ فِي أُمِّ الْكِتَابِ، لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي مَنْ حَادَّنِي وَشَاقَّنِي" [٦]. وقال في قوله تعالى:"** ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾ **[الأنعام: ١٢] " قَضَى أَنَّهُ بِعِبَادِهِ رَحِيمٌ، لَا يَعْجَلُ عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ وَيَقْبَلُ مِنْهُمُ الْإِنَابَةَ وَالتَّوْبَةَ"[٧]. الكتابة في الآيتين السابقتين بمعنى القضاء، والخط في أم الكتاب.**

ثانيًا: تفسير المعتزلة:

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ **[آل عمران: ١٨١] " سَنَكْتُبُ ما قالُوا في صحائف الحفظة. أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت**

(١) مقاييس اللغة مادة: [كتب]، جـ٥، ص: ١٥٨
(٢) لسان العرب، مادة: [كتب] جـ١، ص:٦٩٨،٦٩٩
(٣) مقاييس اللغة، جـ٥، ص: ١٥٨، ومختار الصحاح، مادة: [ك ت ب] ص٢٦٦.
(٤) مقاييس اللغة، جـ٥، ص: ١٥٩، ومختار الصحاح، ص٢٦٦، لسان العرب، جـ١، ص:٦٩٩.
(٥) لسان العرب، جـ١، ص:٧٠١.
(٦) جامع البيان، جـ٢٢، ص:٤٩٣
(٧) السابق، جـ٩، ص:١٦٧

المكتوب"[١]. وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ **[الأنعام: ١٢] " كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أي: أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته، ونَصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم مقرون"[٢]. فسر الزمخشري الكتابة على أنها من فعل الحفظة، أو أن الكتابة بمعنى الحفظ والإثبات في علم الله فلا ينساه الله. وفي الآية الثانية جعل (كتب) بمعنى: أوجب على نفسه الرحمة، وهو ما يقرره منهج المعتزلة.**

التوجيه البلاغي وفق منهج أهل السنة:

يثبت أهل السنة صفة الكتابة لله تعالى على حقيقتها اللائقة بالله تعالى بلا تشبيه ولا كيف، فثبوت فعل الكتابة لله معلوم، والكيف مجهول، والإيمان بها واجب. وهذا لا يمنع من تفسير الصفة بلازم معناها المناسب للسياق مع الإقرار بثبوتها على الحقيقة. كما فعل الطبري فقد فسر الكتابة بمعنى القضاء في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ **[الأنعام: ١٢] وجملة (كتب على نفسه الرحمة) جملة خبرية فعلها ماضٍ للدلالة على التحقق والثبوت. وقد أفادت " اسْتِعْطَافٌ الله سبحانه لِلْمُعْرِضِينَ عَنْهُ إِلَى الْإِقْبَالِ إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ [٣]. وقد جمع الطبري بين التفسير بلازم معنى الصفة، وإثباتها على حقيقتها في قوله تعالى:** ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ **[المجادلة: ٢١] فقد فسر الكتابة بمعنى القضاء، وعليه تكون الكتابة كناية عن صفة، وفسرها بالخط في أم الكتاب، وذلك على الحقيقة.**

التوجيه البلاغي وفق منهج المعتزلة:

من خلال تفسير الزمخشري للكتابة في حق الله تعالى، يتضح أنه جعلها مجاز: إما على سبيل المجاز المرسل، وإما على سبيل الاستعارة. فقوله تعالى: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ **[آل عمران: ١٨١] أي: سيكتب الحفظة، فالكتابة مجاز مرسل علاقته السببية، فالله هو الذي أمر الحفظة بالكتابة فكتبوا. وجَوَّز الزمخشري أن تكون الكتابة استعارة تمثيلية فقد جعل حفظ الله سبحانه لما قال اليهود وإثباته في علمه فلا ينسى، كالكاتب الذي يدون ما يسمع من الأمور المهمة حتى لا ينساها.**

(١) الكشاف وبحاشيته كتاب الانتصاف، جـ١، ص:٤٤٦
(٢) السابق، جـ٢، ص:٨
(٣) جامع البيان، جـ٩، ص:١٦٧

وجعل (كتب) في قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ ﴾ [الأنعام: ١٢] بمعنى أوجب، فالمعتزلة توجب على الله تعالى الرحمة، والإيجاب بمعنى الإلزام، يقول القاضي عبد الجبار:" ونحن إذا وصفنا القديم تعالى بأنه عدل حكيم؛ فالمراد به أنه لا يفعل القبيح ولا يختاره، ولا يُخِّل بما هو واجب عليه، وأن أفعاله كلها حسنة"(١). فالكتابة في الآية السابقة مجاز مرسل عن الإيجاب والإلزام علاقته السببية، والقرينة عقلية؛ لاستحالة الكتابة على الله تعالى.

والقول بالمجاز في صفة الكتابة يفضي حتمًا إلى نفيها عن الله تعالى. وقد ورد الفعل (كتب) في القرآن الكريم منسوبًا إلى الله تعالى كثيرًا، وبصيغ متنوعة في الماضي والمضارع، والمفرد والجمع ما يدل على اتصاف الله تعالى بالكتابة حقيقة، ولا يوجد مسوغ للقول بالمجاز إلا الاستحالة العقلية.

وقد ورد في السنة النبوية الصحيحة ما يثبت أن الله كتب بيده، من ذلك ما رواه الطبري بسنده عن سعيد بن جبير أنه سُئل عن ألواح موسى عليه السلام من أي شيء كانت فقال: "كَانَتْ مِنْ يَاقُوتَةٍ، كِتَابَةُ الذَّهَبِ، كَتَبَهَا الرَّحْمَنُ بِيَدِهِ، فَسَمِعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صَرِيفَ الْقَلَمِ وَهُوَ يَكْتُبُهَا"(٢).

وروى أيضًا أن سيدنا عمر بن الخطاب سأل كعب عن أَوَّلُ شَيْءٍ ابْتَدَأَهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ؟ فَقَالَ كَعْبٌ: " كَتَبَ اللَّهُ كِتَابًا لَمْ يَكْتُبْهُ بِقَلَمٍ وَلَا مِدَادٍ، وَلَكِنَّهُ كَتَبَ بِأُصْبُعِهِ يَتْلُوهَا الزَّبَرْجَدُ وَاللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ: أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي"(٣). سبحانه كتب الرحمة على نفسه فضلًا وإحسانًا، لا وجوبًا وإلزامًا.

صفة: الكيد لأعدائه

الكيد من صفات الله تعالى الفعلية الثابته بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: ٧٦] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴾ [الطارق: ١٥-١٧] .

(١) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار بن أحمد، تعليق: الإمام أحمد بن الحسين، بن أبي هاشم، تحقيق: الدكتور عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة ـ القاهرة، (د ـ ط)، (د ـ ت) ص:٣٠١
(٢) جامع البيان، جـ١٠، ص:٤٥٦
(٣) السابق، جـ٩، ص:١٧١

المعنى اللغوي:

قال ابن فارس:"(كَيَدَ) الْكَافُ وَالْيَاءُ وَالدَّالُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مُعَالَجَةٍ لِشَيْءٍ بِشِدَّةٍ، ثُمَّ يَتَّسِعُ الْبَابُ، وَكُلُّهُ رَاجِعٌ إِلَى هَذَا الْأَصْلِ. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْكَيْدُ: الْمُعَالَجَةُ. قَالُوا: وَكُلُّ شَيْءٍ تُعَالِجُهُ فَأَنْتَ تَكِيدُهُ. هَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الْبَابِ، ثُمَّ يُسَمُّونَ الْمَكْرَ كَيْدًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا} [الطور: ٤٢]. وَيَقُولُونَ: هُوَ يَكِيدُ بِنَفْسِهِ، أَيْ يَجُودُ بِهَا، كَأَنَّهُ يُعَالِجُهَا لِتَخْرُجَ. وَالْكَيْدُ: صِيَاحُ الْغُرَابِ بِجَهْدٍ. وَالْكَيْدُ: أَنْ يُخْرِجَ الزَّنْدُ النَّارَ بِبُطْءٍ وَشِدَّةٍ، وَالْكَيْدُ: الْقَيْءُ، وَرُبَّمَا سَمَّوُا الْحَيْضَ كَيْدًا. وَالْكَيْدُ: الْحَرْبُ، يُقَالُ: خَرَجُوا وَلَمْ يَلْقَوْا كَيْدًا، أَيْ حَرْبًا"(١). والكَيْدُ: الخُبْثُ والمَكْرُ والكَيْدُ: التَّدْبِيرُ بِبَاطِلٍ أَو حَقّ (٢).

أولًا: تفسير أهل السنة:

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ **[يوسف: ٧٦] " هَكَذَا صَنَعْنَا لِيُوسُفَ حَتَّى يُخَلِّصَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ مِنْ إِخْوَتِهِ لِأَبِيهِ، بِإِقْرَارِ مِنْهُمْ أَنَّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنْهُمْ وَيَحْتَبِسَهُ فِي يَدَيْهِ، وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا إِذْ قِيلَ لَهُمْ {مَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ} : جَزَاءُ مَنْ سَرَقَ الصُّوَاع أَنَّ مَنْ وُجِدَ ذَلِكَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ مُسْتَرَقٌّ بِهِ، وَذَلِكَ كَانَ حُكْمُهُمْ فِي دِينِهِمْ، فَكَادَ اللَّهُ لِيُوسُفَ كَمَا وَصَفَ لَنَا حَتَّى أَخَذَ أَخَاهُ مِنْهُمْ، فَصَارَ عِنْدَهُ بِحُكْمِهِمْ وَصُنْعِ اللَّهِ لَهُ"(٣).**

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ **[الأعراف: ١٨٣] "وَأُنْسِئُ فِي آجَالِهِمْ مُلَاوَةً مِنَ الزَّمَانِ، وَذَلِكَ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى اللَّهِ لِتَتَكَامَلَ حُجَجُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. {إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} بِأَهْلِ الْكُفْرِ قَوِيٌّ شَدِيدٌ"(٤).**

وقال في تفسير قوله تعالى:﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ **[الطارق: ١٧] " يَقُولُ: وَأَمْكُرُ مَكْرًا؛ وَمَكْرُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِهِمْ: إِمْلَاؤُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِهِ"(٥). فسر الطبري كيد الله تعالى ليوسف: بأنه صُنْع الله له. وكيد الله بأهل الكفر تأخير آجالهم على ما هم عليه من الكفر به والتمرد عليه؛ ليقيم عليهم الحجج. والكيد المتين: هو المكر الشديد بأهل الكفر.**

ثانيًا: تفسير المعتزلة:

(١) مقاييس اللغة، مادة: [كيد] جـ٥، ص:١٤٩
(٢) لسان العرب، مادة: [كيد] جـ٣، ص:٣٨٣، ٣٨٤
(٣) جامع البيان، جـ١٣، ص:٢٦٢
(٤) السابق، جـ٢٣، ص:١٩٨
(٥) جامع البيان، جـ٢٤، ص:٣٠٧

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ **[يوسف: ٧٦] "كَذلِكَ كِدْنا مثل ذلك الكيد العظيم كدنا لِيُوسُفَ يعنى علمناه إياه وأوحينا به إليه ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ تفسير للكيد وبيان له، لأنه كان في دين ملك مصر، وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يلزم ويستعبد"(١).**

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ **[الأعراف: ١٨٣] " سماه كيداً لأنه شبيه بالكيد، من حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان"(٢).**

وقال في موضع آخر: "وسَمَّى إحسانه وتمكينه كيدًا كما سماه استدراجًا، لكونه في صورة الكيد حيث كان سببًا للتورّط في الهلكة، ووصفه بالمتانة لقوّة أثر إحسانه في التسبب للهلاك"(٣).

التوجيه البلاغي وفق منهج أهل السنة:

يثبت أهل السنة لله تعالى صفة الكيد بأعدائه على الوجه اللائق بجلاله وكماله وعظمته، بلا تشبيه ولا كيف. وتفسيرات الطبري لصفة الكيد في حق الله تعالى كلها في إطار الحقيقة.

وتفسير الطبري الكيد بالصنع هو من قبيل تفسير الصفة بلازمها، مع الإقرار بثبوتها صفة لله تعالى على الحقيقة. في قول الله تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ ﴾ **[يوسف: ٧٦] أخبر المولى عز وجل أنه صنع ليوسف عليه السلام تدبيرًا وكيدًا؛ ليضم إليه أخاه من أبيه في حكم الملك وسلطانه، وهو أن يدس الصواع في رحل أخيه، وأن يحكم الإخوة باسترقاق السارق. وجملة "كدنا وقع خبرًا من الله عز وجل عليّ خلاف معناه في أوصاف المخلوقين، فإنه إذا أُخْبِر به عن مخلوق كان تحته احتيال، وهو في موضع فعل الله مُعرًّى من المعاني المذمومة، ويخلص بأنه وقع بمن يكيده تدبير ما يريده به من حيث لا يشعر ولا يقدر على دفعه"(٤). ولا يخفى ما يشتمل عليه التعبير بضمير الجمع في قوله تعالى (كدنا) من إظهار العظمة والجلال والكبرياء للخالق سبحانه، وهو أهل لكل فضل وثناء.**

---

(١) الكشاف، وبحاشيته كتاب الانتصاف، جـ٢، ص:٤٩١
(٢) السابق، جـ٢، ص:١٨٢
(٣) السابق، جـ٤، ص:٥٩٦
(٤) لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد أبو الحسن المعروف بالخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ. جـ٢، ص:٥٤٥

التوجيه البلاغي وفق منهج المعتزلة:

يتضح من خلال ما ذكره الزمخشري في تفسير الكيد في حق الله تعالى، أنه أوله بالمجاز فالكيد: "هو المكر والخديعة، وهو أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه، وهو في حق الله تعالى محمول على التمثيل، فكأن صورة صنع الله تعالى في تعليمه يوسف عليه السلام ألا يحكم على إخوته حكم الملك بأن يُغَرَّم السارق مثليّ ما أخذه، بل يجري عليهم الحكم على سنن مذهبهم بأن يستعبد السارق، تشبه صورة صنع من يوهم الغير خلاف ما يخفيه؛ لأن مقصود يوسف عليه السلام إيواء أخيه إليه، وكان لا يتم ذلك إلا بهذه الحيلة"(١). وعلى هذا القول فالكيد استعارة تمثيلية، والقرينة عقلية.

والمعتزلة يقصدون من وراء نفي حقيقة الكيد عن الله تعالى تنزيهًا له عن صفات المخلوقين فوقعوا فيما حاولوا اجتنابه، فهم لا يفهمون من الكيد إلا المعنى المذموم، ولا يدركون ماهيته إلا من صفات المخلوقين وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا" فالكيد يكون مذموما وممدوحًا، وإن شاع استعماله في المذموم أكثر، فما هو من قبيل المذموم ما في قوله تعالى: ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ **[يوسف: ٥]، وقوله تعالى:** ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ **[يوسف: ٥٢]، ومما هو من قبيل الممدوح ما في قوله تعالى:** ﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ ﴾ **[يوسف: ٧٦]"(٢).**

ومن المعاني اللغوية للكيد، أنه تدبير بباطل أو حق، فما كان منه بباطل فهو مذموم وما كان منه بحق فهو ممدوح، ولا يكون كيد الله تعالى إلا بحق، فكيد الله تعالى ليوسف بحق وهو حقيقة، وكيد الله تعالى بأعدائه بحق؛ وذلك لكفرهم بالله وجحودهم آياته.

(١) الكشاف بحاشية الطيبي، جـ٨، ص:٣٩٧

(٢) غرر البيان من سورة يوسف ـ عليه السلام ـ في القرآن دراسة قصصية ولمسات بيانية، أحمد محمود الشوابكة، دار الفاروق للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى: ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م. ص:١٤٨

صفة: المَكْر بمن يَمْكُر به

من صفات الله تعالى الفعلية التي لا يوصف الله بها وصفًا مطلقًا، وإنما تكون مقيدة. قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ **[الأنفال: ٣٠] وقال تعالى:** ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ **[النمل: ٥٠-٥١] وقال تعالى:** ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ **[الأعراف: ٩٧-٩٩]**

المعنى اللغوي:

قال ابن فارس:"(مَكَرَ) الْمِيمُ وَالْكَافُ وَالرَّاءُ كَلِمَتَانِ مُتَبَايِنَتَانِ: إِحْدَاهُمَا الْمَكْرُ: الِاحْتِيَالُ وَالْخِدَاعُ. وَمَكَرَ بِهِ يَمْكُرُ. وَالْأُخْرَى الْمَكْرُ: خَدَالَةُ السَّاقِ. وَامْرَأَةٌ مَمْكُورَةُ السَّاقَيْنِ"(١).

والمَكْرُ: سَقْيُ الأَرض والمَكْرَةُ: الساقُ الْغَلِيظَةُ الْحَسْنَاءُ. وامرأَة مَمْكُورَةٌ: مُسْتَدِيرَةُ السَّاقَيْنِ والمَكْرُ: المَغْرَةُ. وَثَوْبٌ مَمْكُورٌ ومُمْتَكَرٌ: مَصْبُوغٌ بالمَكْرِ، وَقَدْ مَكَرَه فامْتَكَرَ أَي خَضَبَه فاخْتَضَب والمَكْرُ: نَبْتٌ. والمَكْرَةُ: نَبْتَةٌ غُبَيْراءُ مُلَيْحاءُ إِلى الغُبرة، والمَكْرَة الرُّطَبة الْفَاسِدَةُ. والمَكْرَةُ: التَّدْبِيرُ وَالْحِيلَةُ فِي الحرْب (٢).

أولًا: تفسير أهل السنة:

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ **[آل عمران: ٥٤] " يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثناؤُهُ: وَمَكَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُمُ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّ عِيسَى أَحَسَّ مِنْهُمُ الْكُفْرَ، وَكَانَ مَكْرُهُمُ الَّذِي وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ مُوَاطَأَةَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا عَلَى الْفَتْكِ بِعِيسَى وَقَتْلِهِ... وَأَمَّا مَكْرُ اللَّهِ بِهِمْ إِلْقَاؤُهُ شَبَهَ عِيسَى عَلَى بَعْضِ أَتْبَاعِهِ، حَتَّى قَتَلَهُ الْمَاكِرُونَ بِعِيسَى، وَهُمْ يَحْسَبُونَهُ عِيسَى، وَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِيسَى قَبْلَ ذَلِكَ" (٣).**

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ **[الأعراف: ٩٧-٩٩] " أَفَأَمِنَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ اللَّهَ**

(١) مقاييس اللغة مادة: [مكر]، وينظر مختار الصحاح، مادة: [م ك ر] ولسان العرب مادة: [مكر]
(٢) لسان العرب مادة: [مكر] .
(٣) جامع البيان، جـ٥، ص:٤٤٦

وَرَسُولَهُ وَيَجْحَدُونَ آيَاتِهِ، اسْتِدْرَاجَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ مِنْ صِحَّةِ الْأَبْدَانِ وَرَخَاءِ الْعَيْشِ، كَمَا اسْتَدْرَجَ الَّذِينَ قَصَّ عَلَيْهِمْ قَصَصَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ. فَإِنَّ مَكْرَ اللَّهِ لَا يَأْمَنُهُ ـ يَقُولُ: لَا يَأْمَنُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ اسْتِدْرَاجًا مَعَ مَقَامِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ وَهُمُ الْهَالِكُونَ" (١).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ **[الأنفال: ٣٠] " وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ نِعْمَتِي عِنْدَكَ بِمَكْرِي بِمَنْ حَاوَلَ الْمَكْرَ بِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِكَ، بِإِثْبَاتِكَ، أَوْ قَتْلِكَ، أَوْ إِخْرَاجِكَ مِنْ وَطَنِكَ، حَتَّى اسْتَنْقَذْتُكَ مِنْهُمْ وَأَهْلَكْتُهُمْ ... فَإِنَّ رَبَّكَ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ بِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَعَبَدَ غَيْرَهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ"** (٢).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ **[النمل: ٥٠-٥١] " يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَغَدَرَ هَؤُلَاءِ التِّسْعَةُ الرَّهْطُ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِصَالِحٍ بِمَسِيرِهِمْ إِلَيْهِ لَيْلًا لِيَقْتُلُوهُ وَأَهْلَهُ، وَصَالِحٌ لَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ** {وَمَكَرْنَا مَكْرًا} **[النمل: ٥٠] يَقُولُ: فَأَخَذْنَاهُمْ بِعُقُوبَتِنَا إِيَّاهُمْ، وَتَعْجِيلِنَا الْعَذَابَ لَهُمْ** {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} **[الأعراف: ٩٥] بِمَكْرِنَا. وَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا مَضَى مَعْنَى: مَكْرِ اللَّهِ بِمَنْ مَكَرَ بِهِ، وَمَا وَجْهُ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ أَخْذَهُ مَنْ أَخَذَهُ مِنْهُمْ عَلَى غِرَّةٍ، أَوِ اسْتِدْرَاجُهُ مِنْهُمْ مَنِ اسْتَدْرَجَ عَلَى كُفْرِهِ بِهِ وَمَعْصِيَتِهِ إِيَّاهُ، ثُمَّ إِحْلَالُهُ الْعُقُوبَةَ بِهِ عَلَى غِرَّةٍ وَغَفْلَةٍ"** (٣). **فسر الطبري المكر في حق الله تعالى بأنه استدراج الكافرين ثم إحلاله العقاب بهم وهم غافلون.**

ثانيًا: تفسير المعتزلة:

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ **[الأعراف: ٩٧-٩٩] " ومَكْرُ الله: استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر. ولاستدراجه. فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مَكْرِ الله، كالمحارب الذي يخاف من عدوّه الكمين والبيات والغيلة"** (٤). **وقال في تفسير قوله تعالى:**﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ **[النمل: ٥٠] " مكرهم: ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله. ومَكْرُ الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون.**

(١) السابق، جـ١٠، ص:٣٣٤
(٢) السابق، جـ١١، ص:١٤٠
(٣) جامع البيان، جـ١٨، ص:٩٢
(٤) الكشاف، وبحاشيته كتاب الانتصاف، جـ٢، ص:١٣٤

شُبِّه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة" (١).

التوجيه البلاغي وفق منهج أهل السنة:

يثبت أهل السنة صفة المكر لله تعالى على الحقيقة على ما يليق بكماله وجلاله وعظمته، بلا تشبيه ولا كيف، فمكر الله بمن مكر به معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب. فإن لله مكرًا بأعدائه، وللمخلوق مكر بأعدائه، وشتان ما بين صفة الخالق وصفة المخلوق، سبحانه﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

من خلال ما ذكره الطبري في تفسير المكر المنسوب إلى الله، يفهم أنه مثبت لهذه الصفة على الحقيقة، وإن كان فسرها بلازم معناها أحيانًا. فقوله تعالى:﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل: ٥٥] ذكر الطبري أن المكر الواقع من الله تعالى هو أخذه الكافرين بالعقوبة، وتعجيل العذاب لهم، فيكون المكر كناية، حيث أُطلِق المكر وأُريد لازم معناه، وهو أخذه الكافرين بالعقوبة، وتعجيل العذاب لهم. والمتدبر في الآية الكريمة السابقة يدرك يقينًا أن مكر الكافرين مغاير تمامًا لمكر رب العالمين. فمكر الكافرين سيء مذموم؛ لأنه بباطل، ومكر الله تعالى بحق فهو ممدوح ومحمود؛ لأنه عقاب للظالمين وانتصار للمظلومين، "وَأَكَّدَ مَكْرَهُمْ بِالْمَفْعُولِ الْمُطْلَقِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُوَّتِهِ فِي جِنْسِ الْمَكْرِ، وَتَنْوِينِهِ لِلتَّعْظِيمِ... وَأُكِّدَ مَكْرُ اللَّهِ وَعُظِّمَ كَمَا أُكِّدَ مَكْرُهُمْ وَعُظِّمَ، وَذَلِكَ بِمَا يُنَاسِبُ جِنْسَهُ، فَإِنَّ عَذَابَ اللَّهِ لَا يُدَانِيهِ عَذَابُ النَّاسِ فَعَظِيمُهُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مَا يُقَدِّرُهُ النَّاسُ" (٢).

التوجيه البلاغي وفق منهج المعتزلة:

لا يثبت الزمخشري صفة المكر لله تعالى على الحقيقة، فقد ذكر صراحة أن المكر المسند إلى الله تعالى استعارة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل: ٥٠] فالمكر المسند إلى المجرمين من قوم صالح ـ عليه السلام ـ مكر حقيقي، "وَالْمَكْرُ الَّذِي أُسْنِدَ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ مَكْرٌ مَجَازِيٌّ. اسْتُعِيرَ لَفْظُ الْمَكْرِ لِمُبَادَرَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِاسْتِئْصَالِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ تَبْيِيتِ صَالِحٍ وَأَهْلِهِ، وتأخيره استئصالهم إِلَى الْوَقْتُ الَّذِي تَآمَرُوا فِيهِ عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ لِشَبَهِ فِعْلِ اللَّهِ ذَلِكَ بِفِعْلِ الْمَاكِرِ

(١) السابق، جـ٣، ص:٣٧٣
(٢) التحرير والتنوير، جـ١٩، ص:٢٨٤

فِي تَأْجِيلِ فِعْلٍ إِلَى وَقْتِ الْحَاجَةِ، مَعَ عَدَمِ إِشْعَارِ مَنْ يُفْعَلُ بِهِ"[١]. فالزمخشري يقصد من وراء قوله بالمجاز تنزيه الله تعالى عن فعل القبيح، فالمكر عنده لا يكون إلا قبيحًا؛ لأنه تدبير ضر بخفاء، والله سبحانه منزه عن ذلك.

ودعوى المجاز في صفة المكر المسند إلى الله تعالى مندفعة بما يأتي:

أولًا: الأصل في الكلام الحقيقة، فلا يُصرَف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه إلا بقرينة ولا قرينة هنا إلا العقل البشري الضعيف القاصر.

ثانيًا: ورد المكر مسندًا إلى الله تعالى في القرآن الكريم كثيرًا، وورد في السنة أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ـ ﷺ ـ دعا فقال:" رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي" [٢].

ثالثًا: قال ابن قتيبة:" أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر ولا تُأكد بالتكرار"[٣]. وقد خرج من الفعل مصدره في قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ **[النمل: ٥٠]، وأُكِّد بالتكرار في قوله تعالى:** ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ **[الأعراف: ٩٩].**

رابعًا: المكر منه الحسن ومنه السيء وإن غلب استعمال المكر في السوء، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ ﴾ **[فاطر: ٤٣]، فمكر الكافرين بالأنبياء والمؤمنين سيء مذموم، ومكر الله تعالى بالكافرين حسن محمود.**

صفة: النسيان بمعنى الترك

النسيان بمعنى الترك صفة فعلية لله تعالى وفق إرادته ومشيئته، وهي ثابتة بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ **[الأعراف: ٥١] وقوله تعالى:** ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ **[التوبة: ٦٧] وقوله تعالى:** ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ

---

(١) السابق، جـ١٩، ص:٢٨٤

(٢) سنن أبي داود، جـ ٢، ص: ٦٢٢، وسنن الترمزي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥م، جـ ٥، ص:٥٤٤

(٣) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، (د، ط)، (د، ت)، رقم الإيداع ١٩٧٣/٥٠٢٨م، ص:١١١

تَعْمَلُونَ﴾ **[السجدة: ١٤]، وقوله تعالى:** ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ **[الجاثية: ٣٤].**

المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: "(نَسِيَ) النُّونُ وَالسِّينُ وَالْيَاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ: يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى إِغْفَالِ الشَّيْءِ، وَالثَّانِي عَلَى تَرْكِ شَيْءٍ. فَالْأَوَّلُ: نَسِيتُ الشَّيْءَ، إِذَا لَمْ تَذْكُرْهُ، نِسْيَانًا.... والثاني: الترك كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ **[طه: ١١٥]، أَرَادَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ: فَتَرَكَ الْعَهْدَ... وَالنَّسَا: عِرْقٌ فِي الْفَخِذِ... وَالنَّسِيئَةُ: بَيْعُكَ الشَّيْءَ نَسَاءً، وَهُوَ التَّأْخِيرُ... والْمِنْسَأَةِ: الْعَصَا"[١]. تدور معاني (نسي) على: الغفلة والترك، وإذا هُمِزت أفادت معنى: التأخير.**

أولًا: تفسير أهل السنة:

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ **[الأعراف: ٥١] " أَيْ فَفِي هَذَا الْيَوْمِ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، نَنْسَاهُمْ، يَقُولُ: نَتْرُكُهُمْ فِي الْعَذَابِ الْمُبِينِ جِيَاعًا عِطَاشًا بِغَيْرِ طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ، كَمَا تَرَكُوا الْعَمَلَ لِلِقَاءِ يَوْمِهِمْ هَذَا وَرَفَضُوا الِاسْتِعْدَادَ لَهُ بِإِتْعَابِ أَبْدَانِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ"[٢].**

وقال في تفسير قوله تعالى:﴿ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ **[التوبة: ٦٧] "فَإِنَّ مَعْنَاهُ: تَرَكُوا اللَّهَ أَنْ يُطِيعُوهُ وَيَتَّبِعُوا أَمْرَهُ، فَتَرَكَهُمُ اللَّهُ مِنْ تَوْفِيقِهِ وَهِدَايَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَقَدْ دَلَلْنَا فِيمَا مَضَى عَلَى أَنَّ مَعْنَى النِّسْيَانِ التَّرْكُ "[٣].**

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ **[السجدة: ١٤] "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: يُقَالُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ إِذَا هُمْ دَخَلُوا النَّارَ: ذُوقُوا عَذَابَ اللَّهِ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا، ﴿ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ ﴾ يَقُولُ: إِنَّا تَرَكْنَاكُمُ الْيَوْمَ فِي النَّارِ"[٤]. فسر الطبري النسيان في حق الكافرين والمنافقين بمعنى: الترك، وفسره مرة واحدة بمعنى: الغفلة، وفسر النسيان المسند إلى الله تعالى بمعنى الترك.**

---

(١) مقاييس اللغة، مادة: [نسي] جـ٥، ص:٤٢١
(٢) جامع البيان، جـ١٠، ص:٢٣٧
(٣) السابق، جـ١١، ص:٥٤٩
(٤) جامع البيان، جـ١١، ص:٥٤٩

ثانيًا: تفسير المعتزلة:

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ **[الأعراف: ٥١] " فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير لا يذكرونهم به كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا كما فعلوا بلقائه فعل الناسين، فلم يُخْطِروه ببالهم ولم يهتموا به"**(١).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ **[التوبة: ٦٧] " نَسُوا اللَّهَ أغفلوا ذكره فَنَسِيَهُمْ فتركهم من رحمته وفضله هُمُ الْفاسِقُونَ هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير"**(٢).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ **[السجدة: ١٤] "والمراد بالنسيان: خلاف التذكر، يعنى: أن الانهماك في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها، ثم قال إِنَّا نَسِيناكُمْ على المقابلة، أي: جازيناكم جزاء نسيانكم. وقيل: هو بمعنى الترك، أي: تركتم الفكر في العاقبة، فتركناكم من الرحمة"**(٣).

فسر الزمخشري النسيان في حق الكفار والمنافقين بمعنى: الغفلة، وفسر النسيان في حق الله تعالى بمعنى: الجزاء، أو هو في مقابلة نسيان الكافرين، أو بمعنى الترك.

التوجيه البلاغي وفق منهج أهل السنة:

يثبت أهل السنة صفة النسيان بمعنى الترك لله تعالى على الحقيقة، فالله عز وجل يترك الكافرين والمنافقين في عذاب جهنم يوم القيامة تركًا حقيقيًا يتألمون جوعًا وعطشًا ويقاسون صنوف العذاب الأخرى؛ وذلك بغفلتهم وتركهم الإيمان بالله تعالى وتركهم الاستعداد لهذ اليوم العظيم وما فيه من أهوال وشدائد. ولا يصح أن يفسر النسيان في حق الله تعالى بمعنى الغفلة؛ لأن الغفلة لا تجوز في حقه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ **[مريم: ٦٤]، وقوله تعالى:** ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ **[طه: ٥٢].**

(١) الكشاف، وبحاشيته كتاب الانتصاف، جـ٢، ص:١٠٩
(٢) السابق، جـ٢، ص:٢٨٧
(٣) السابق، جـ٣، ص:٥١١

" وتركه سبحانه وتعالى للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته؛ قال تعالى: ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ **[البقرة: ١٧]، وقال تعالى:** ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ **[الكهف: ٩٩]، "والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه. وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين، وإن شاركه في أصل المعنى؛ كما هو معلوم عند أهل السنة"(١).**

التوجيه البلاغي وفق منهج المعتزلة:

يتضح من تفسيرات الزمخشري للنسيان المسند إلى الله تعالى أنه من باب المجاز، فما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ **[الأعراف: ٥١] يفهم منه أن النسيان المسند إلى الله تعالى استعارة تمثيلية، حيث شبه فعل الله بالكافرين والمنافقين يوم القيامة بما يستحقونه من العذاب، بفعل السيد الذي لديه عبيد فنسيهم من الخير وغفل عنهم، والقرينة عقلية؛ لأن النسيان بمعنى الغفلة لا يجوز في حق الله تعالى. وهذا التوجيه من الزمخشري وفق عقيدته الإعتزالية يفضي إلى نفي صفة النسيان بمعنى الترك في حق الله تعالى وعدم إثباتها؛ لأن هذه الصفة ومثيلاتها تستحيل عقلا على الله تعالى.**

وفسر النسيان المسند إلى الله تعالى في آية التوبة، بمعنى الترك وهو مجاز مرسل لعلاقة التلازم؛ لما بين النسيان والترك من تلازم، فمن غفل عن شيء تركه، ومن ترك شيئًا غفل عنه، مع إقرار الزمخشري بعدم جواز الغفلة على الله سبحانه.

ووجَّه النسيان المسند إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ **[السجدة: ١٤] بأنه على سبيل المقابلة لنسيان الكافرين ليوم القيامة، فهو مجاز مرسل علاقته السببية حيث عبر بالسبب وهو النسيان والمراد المسبب عنه وهو الجزاء والعقاب الذي يستحقه الكافرون، فنسيانهم حقيقة ونسيان الله لهم بمعنى الجزاء والعقاب، فيجوز في غير القرآن أن يُقال: (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا جازيناكم عقابًا) والله أعلم.**

---

(١) صفات الله تعالى الواردة في الكتاب والسنة، علوي بن عبد القادر السقاف، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض . السعودية، الطبعة الثانية: ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م. ص:٣٤٣

وتأويل الزمخشري لصفة النسيان بمعنى الترك في حق الله تعالى بالمجاز وعدم إثباتها؛ لموافقة عقيدته الإعتزالية في نفي الصفات الإلهية، وهذا التأويل يفضي إلى نفي صفة النسيان بمعنى الترك في حق الله تعالى؛ وذلك لأن هذه الصفة ومثيلاتها تستحيل عقلا على الله تعالى.

ولا يصح تأويل صفة النسيان في حق الله تعالى بمعنى الترك بالمجاز؛ وذلك لورود الآيات القرآنية بثبوتها في حق الله تعالى بلفظ(الترك) صراحة، وقد ثبت من أقوال اللغويين والمفسرين أن من معاني النسيان الترك، ولا يصح الاعتماد على القرينة العقلية وحدها في هذا الباب لعظيم شأنه، وما يعتري العقل البشري من نقص وضعف. ومعلوم أن ترك الله تعالى المنافقين والكفار في عذاب جهنم فعل محمود؛ لأنه صادر عن عدل وحكمة.

الخاتمة

وفي نهاية البحث يمكن إجمال أهم النتائج في النقاط التالية:

أولًا: يقوم منهج أهل السنة على تقديم النقل على العقل، فهم يثبتون الصفات الإلهية لله تعالى على الحقيقة اللائقة به سبحانه؛ لذلك لم تخرج توجيهاتهم البلاغية للصفات الإلهية عن دائرة الحقيقة، وقد تجلى ذلك بوضوح من خلال تفسير الطبري لآيات الصفات الإلهية، وإن كان قد فسر بعض الصفات بلازم معناها المناسب للمقام فهو مثبت للصفة على الحقيقة اللائقة بالله تعالى، وتفسير الصفة بلازم معناها من باب الحقيقة لا المجاز.

ثانيًا: يقوم منهج المعتزلة على تقديم العقل على النقل؛ فإذا وافق النقل عقولهم قبلوه، وإلا أولوه بالمجاز؛ لذلك ينفون حقيقة الصفات عن الله تعالى ويجعلونها مجازًا. وقد تجلى ذلك المنهج بوضوح من خلال تفسير الزمخشري لآيات الصفات، فكانت توجيهاته البلاغية للصفات لا تخرج عن دائرة المجاز اللغوي بجناحيه: الاستعارة، والمجاز المرسل.

ثالثًا: اتخذ المعتزلة من القرينة العقلية ركيزة أصيلة لنفي الصفات الإلهية، وصرفها عن حقيقتها إلى المجاز، وحجتهم في ذلك تنزيه الله تعالى عن سائر الخلق. ولا يصح تسليط العقل البشري الضعيف القاصر المتفاوت على تلك الأمور الغيبية العظيمة الثابتة بالوحي، وإن لم نتصور كيفها.

رابعًا: لا يمكن فهم وتذوق ما انطوت عليه آيات الصفات الإلهية من أسرار بلاغية وخصائص بيانية، ونسمات إيمانية ـ تمام الفهم والتذوق إلا من خلال منهج أهل السنة؛ لأن تفسير الصفة الإلهية بالمجاز- عند المعتزلة ـ يفضي إلى تعطيلها ونفيها، ومن ثم لا وجود للصفة أصلًا، فإذا انعدم الأصل انعدم الفرع.

وفي ختام الخاتمة يمكن القول: بأن منهج أهل السنة هو الحق، وتوجيهاتهم البلاغية لآيات الصفات الإلهية هي عين الصواب. ولا بد من مراجعة كل ما كتبه المعتزلة في علوم البلاغة العربية، وخاصة باب المجاز، فما وافق منهج أهل السنة قبلناه، وما خالفه رددناه عليهم، ويجب ـ أيضًا ـ مراجعة المقررات الدراسية في مجال البلاغة العربية التي يدرسها طلاب التعليم الثانوي والجامعي، وتنقيتها من شوائب فكر المعتزلة، وليكن شعارنا "بلاغتنا من عقيدتنا".

الـ اجع

١ــ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

٢ــ تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، (د، ط)، (د، ت)، رقم الإيداع ١٩٧٣/٥٠٢٨م.

٣ــ التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ـ تونس، سنة: ١٩٨٤هـ.

٤ــ تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني، تحقيق/ ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض ــ السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٥ــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ.

٦ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى١٤٢٠هـ /٢٠٠٠ م.

٧ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق الدكتور/ عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٨ـ سنن أبي داود، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط ومحمَّد كامل قره بللي، دار دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩ م.
٩ ـ سنن الترمزي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥م.

١٠ـ شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار بن أحمد، تعليق: الإمام أحمد بن الحسين، بن أبي هاشم، تحقيق: الدكتور عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة ـ القاهرة، (د ـ ط)، (د ـ ت).

١١ــ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، راجعه واعتنى به دكتور/محمد محمد تامر، أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد ــ دار الحديث ــ القاهرة ـ ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

١٢ ـ صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة ـ دمشق، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
١٣ــ صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
١٤ــ الصفات الإلهية: تعريفها وأقسامها، د/ محمد بن خليفة بن علي التميمي ١٥ــ دار أضواء السلف ـ الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
١٥ـ صفات الله تعالى الواردة في الكتاب والسنة، علوي بن عبد القادر السقاف، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض ـ السعودية، الطبعة الثانية: ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
١٦ـ غرر البيان من سورة يوسف ـ عليه السلام ـ في القرآن دراسة قصصية ولمسات بيانية، أحمد محمود الشوابكة، دار الفاروق للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى: ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م.
١٧ ـ الكشاف، للزمخشري، وبحاشيته (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال) لأحمد بن المنير السكندري ـ دار الكتاب العربي ــ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

١٨ــ الكشاف ومعه حاشية الجرجاني، وكتاب الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير السكندري، مطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأخيرة، ١٣٣٢هـ،١٩٧٢م.

١٩ــ لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد أبو الحسن المعروف بالخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٢٠ــ لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية، (د، ت).

٢١ــ متشابه القرآن، القاضي عبد الجبار، تحقيق: عدنان زرزور، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى،١٩٦٦م.

٢٢ ــ محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولىـــ ١٤١٨هـ.

٢٣ــ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ـ المدينة المنورة ـ السعودية، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٤ــ المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها) د/ محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠١٠م.

٢٥ــ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، (د، ط)، (د، ت).

٢٦ــ مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩ م.